النتائج الاجتماعية

لمشروع مكافحة الأمية

للأستاذ صلاح الدين الشريف

يعد مشروع مكافحة الأمية فى طليعة المشروعات الاجتماعية الكبيرة التى ينتظمها برنامج منظم من برامج السنوات الخمس . وهو مبدأ انقلاب كبير فى المستوى الاجتماعى للأمة المصرية ، فبعد أن كنا نفتقد مظاهر التماسك فى هذا المستوى ونستشعر مدى الفراغ والنقص الذى يحدثهما فقدان ما يمكن أن نسميه بالوعى الاجتماعى لهذا الشعب ، جاز لنا اليوم أن نأمل فى مستقبل مشرق نستكمل فيه خصائص وجودنا كشعب يحس بمختلف التيارات التى تتجاذبه فى حياته ويستجيب لها فى قوة وفهم وحسن استعداد .

والرأى العام المستنير من أهم خصائص العقل الجمعى الناضج . واذا كانت أساليب التربية القومية والتوجيهات الثقافية فى الدول الراقية تتجه دائما الى تنمية هذا العقل وإعداده لفهم الحياة فى بيئته ليعمل من بعد على رفع مستواها ويشارك قادته وزعماءه حل مشاكلها وتوجيه مرافقها جميعا ، فإن من أهم المسائل الاجتماعية التى يجب أن نضطلع بها ، فى عهد يقظتنا الحاضرة اختيار الأساليب والوسائل التى تساعد على التكوين الثقافى لهذا الشعب لإزالة الفروق الوهمية بين طبقاته وبث روح التضامن بين أفراده .

والشعب المصرى شعب حسن الاستعداد بفطرته قوى الشعور بكيانه ، وهو بخصائصه المذكورة فى طبعه يستجيب لكل توجيه ينهض بأية ناحية من نواحيه .

وطبيعة نظامنا السياسى الديمقراطى تستلزم إعداد الشعب ، بصفته مصدر السلطات فى الدولة والرقيب الأول على من يتولى توجيهها وإدارتها من حكامه وساسته ، وذلك بتهيئته لأن يقوم بدوره فى الرقابة النيابية خير قيام .

ومعنى هذا أن يفهم الشعب عملية المشاركة فى إدارة دفة الحكم ويقدر خطورتها ويستوعب كل نتائجها السياسية والاجتماعية . وهى عملية لا يتصور أداؤها بغير استعداد اجتماعى يكفل لابنائه أن يفهموا حقوقهم المدنية والسياسية على وضعها الصحيح لتكون ممارستهم لها ذات أثر نافع فى توجيه قياد الحكم على وجه متزن سليم .

وأول شرائط النظم النيابية هى استنارة الشعب وارتفاع مستوى ثقافته حتى يستطيع القيام بعبء المشاركة فى شئون الحكم ، والشعب غير المثقف يعد عقبة فى سبيل نمو الأصول السياسية والاجتماعية لأداة الحكم أو استقرارها ، وبالتالى يحدث التصدع الاجتماعى فى كتلة الأمة ، فالحكومة تريد أن يرتفع الشعب اليها والشعب يريد من حكومته أن تنزل الى مستواه

ليفهمها ، فتقف عجلة التطور فى المجتمع أو تسير فى بطء مشين لا يشرف كرامة الشعب فى عصر أصبحت أبرز خصائصه غريزة التسابق والمزاحمة بين الشعوب ، ولو جاءته فى صور من التضامن والتفاهم بين الدول والحكومات .

وفن الحكم أصبح اليوم فنا معقدا كثير المناحى متعدد الفروع والتفاصيل ؛ فلكى يتابع الشعب مشاكله ويدرس موضوعاته القومية ومشكلاته الخارجية التى تشغل باله وتحفز همته لا بد له من قدر من الثقافة يمكنه من مطالعة الصحف السياسية والنشرات الحزبية والمناقشات البرلمانية . ويعينه على تفسير أقوال عظمائه وخطب زعمائه وقادته . ويهيئ له فرصة الحكم الصادق على الحقائق والأفراد والأعمال . وهذه ستعينه على إنماء مواهبه وإظهار استعداداته وعلى أن يكون لنفسه مقياسا دقيقا للقومية والعالمية معا .

وهذا المستوى الاجتماعى لا يأتى بسبيل من الطفرة المباغتة بل لابد له من التدرج فى مراحل التحضير والإعداد لتكوين الناخب الذى يفهم حرية الفكر والقول والاجتماع ويحترم شرائطها وحدودها ، لأنه يحترم مهمة النقد النزيه ويفهم موازينها ويتمسك بها فيؤديها فى صدق وإيمان .

وقديما دعت مشكلات الحكم الفيلسوف اليونانى أفلاطون إلى أن ينادى بقيام حكومة الفلاسفة ، لأنهم أقدر الناس على فهم سياسة الحكم وتدبير أمور الرعية لسعة مداركهم ورجاحة عقولهم ؛ على أن هذا الاقتراح من الفيلسوف الكبير معناه قيام لون من ارستقراطية الحكم المستند إلى فلسفة العقل المدل بفواقه وامتيازه ، وانسياق جماهير المحكومين إلى تقريرات هذا العقل وأحكامه بغير مناقشة أو حساب ؛ وهو أمر يتنافى مع روح العصر الديمقراطى الذى نعيش فيه .

ومكافحة الأمية عندنا تعد أخطر المحاولات الاجتماعية وأجلها شأنا إذ أنها بدء مرحلة من مراحل النهوض الاجتماعى لخلق مقومات الحياة فى الشعب المصرى على نمط جديد .

فهى إعداد للشعب من ناحية الحقوق السياسية كما ذكرنا ، وهى تربية له من النواحى العقلية والصحية ، وأخيرا هى وسيلة فعالة لرفع مستوى حياته من الوجهة الاقتصادية .

فنحن شعب يشكو الضعف والمرض ، وهما الداءان الوبيلان اللذان يشلان جهود الأمة ويحرمان الدخل القومى من إنتاج سواعد أبنائه وجهودهم الكاملة ، بل هما السبب الأول فيما يعانيه أفراد هذا الشعب من عوز وفقر .

وهذا الفقر الذى يكمل مع الكبتين الأولين ثالوث الناخر المخيف ، لا ينفع معه أى علاج مادى مادام يعوزه العلاج العقلى الذى يحمل الفرد يؤمن بحقه فى الوجود وبنصيبه العادل فى حياة خصبة هنية . وكل علاج يتم عن غير هذا الطريق سيكون موقوت الأثر ضئيل

القيمة يضع فروقا هائلة بين مظهرى الأمة من ناحية الشكل الظاهرى وناحية الكيان أو الحقيقة .

فالفرد من الشعب الذى تطبق الأمية على تفكيره لا يمكنه أن يسبغ توجيهات السلطات الصحية فى بلده ولا أن يساعد على مكافحة الأوبئة فى منطقته التى يعيش فيها ، بل سيظل على منطق مشاركة " البهيمة " الأثيرة عنده مكان النوم " والمؤاكلة " !

والفرد من الشعب الذى انحط مستوى دخله على مدار العام حتى ليعجز عن تزويده بالقوت المناسب والكساء الساتر ، لا يمكن أن يسبغ التوجيهات الاجتماعية التى تبثها فيه الأحزاب لتنويعه مكانته من الثروة القومية ونصيبه فيها ، فيظل قانعا بالكفاف من الرزق والهوان من العيش مهما كانت محاولات المصلحين !

والفرد من الشعب الذى يرى حقوقه تنهب أمام عينيه وحريته تهدم بين ناظريه ولا يستطيع حراكا أو احتجاجا ، لهو الشعب الذى انطمس فى تفكيره مقياس الصالح والطالح فما عاد يفرق بين الباطل والحق أو بين الظلم والعدل أو بين الطغيان والحرية ، ذلك لأنه مغمور فى جهالة تنسيه معنى الجهاد فى سبيل استحقاق البقاء .

يقول روزفلت أحد أقطاب السياسة العالمية اليوم " إن جوهر نضالنا وكفاحنا هو أن يتمتع الناس بحريتهم . ولن تكون هناك حرية حقيقية للرجل العادى من دون سياسات اجتماعية متنورة ، وسيتبين لكم فى آخر الدرس والتمحيص أن هذه السياسات هى المبادئ التى من أجلها تقاتل الديموقراطيات اليوم ، فما يهمكم يهم جميع الشعوب الديموقراطية " .

وما أصدق هذا القول وأدله على حالتنا . فرجل الشارع فى المدينة أو رجل الحقل فى القرية ، على اصطلاح السياسة ، لن تكون له حرية ديموقراطية حقيقية أو ضمانات اجتماعية كافية دون " سياسات متنورة " ولن تستكمل هذه السياسات عناصر كمالها دون مشاركته هو فيها ليحس فى تفكيره الباطن أنها جزء منه وجانب مكمل له ، فيحرص على تطبيقها بإيمان ، ويقدر نواحى النقص فيها بفهم وإدراك يمكناه من تلافيها فى الغد .

فلكى ننقل الأمة هذه النقلة الاجتماعية الموموقة لا بد أولا من مكافحة مرض الأمية المشينة التى لا تتفق وصدق طموحنا فى مستقبل كله تقدم ورخاء وذلك بلون من الثقافة الشعبية الملائمة التى تحقق لنا نتائج هذا المشروع الكبير إن شاء الله ؛ ثم موالاة تثقيف الشعب .

صلاح الدين الشريف